في الأدب المقارن

# الذاتي والموضوعي

## في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تتأثر النفس الانسانية بكل ما تحس من مظاهر الحياة، فاذا ماعبر المرء عن تأثره ذاك نثراً أو نظما في لفظ نثي ، كان تعبيره ذاك أدباً ، فالأدب نتاج عاملين : مؤثر هو مظاهر الحياة التي تحفز الأديب إلى الانشاء ، ويتخذها موضوعا لانشائه ، ومتأثر هو ذات الأديب التي يترجم القول المنظوم أو المنثور عن خوالجها ، وليس يخلو عمل أدبي من آثار هذين العاملين ممتزجين ، فكل عمل أدبي هو ذاتي وهو موضوعي ، غير أن الأعمال الأدبية تتفاوت حظا من هذا ونصيبا من ذاك ، فاذا استرسل الأديب في وصف ما هو بإزائه من مظاهر الحياة وشرح أحوالها على علاتها ، مكفكفا من عنان عواطفه محكما دونها الفكر ، كان العمل الأدبي موضوعيا ، وإن أرخى الأديب العنان لعواطفه ملبيا بالموقف الذي هو حياله إلماما خفيفا ، كان عمله الأدبي ذاتياً .

فمظاهر الحياة المختلفة هي مادة الأدب لأنها مادة الاحساس والتفكير ، وبدونها لا يتصور تفكير ولا شعور ، ولا تكون النفس إلا خواء تاما ولا الفكر إلا فضاء مطلقا ؛ والنفس الانسانية هي العامل الفعال الذي يعكس صور مظاهر الحياة تلك ، ويمنحها من الصفات ما يروق المرء حيناً ويطربه ويحببه فيها ، وما يسوؤه حينا ويؤلمه ويبغضه في بعض تلك المظاهر ، والأديب مهما توفر على موضوعه الذي هو بصدده ، ومهما كان موضوعه ذاك بعيداً عن نفسه وعن محيطه وزمنه ، ومهما حكم فيه الفكر السليم والرأي المنزه ، لا يخلو من أن يكون معبراً في عمله الأدبي عن ذاته ، مصدراً عن طبيعته ، وهي طبيعة يتفق فيها مع الآخرين إلى مدى ، ويختلف عنهم في بعض نواحيها .

بل لا يعدو الحق من يقول إن الأديب لا يزيد مدى حياته على أن يعرض نفسه على قرائه ، مهما تباينت موضوعاته وتعددت أشكال أدبه ، فسواء راح مادحا أو ذاما أو واصفا أو قاصا ، أو ملاحظا لأحوال الناس أو متأملا في ماضيهم ومستقبلهم ، فهو لا يعدو محيط نفسه وتجاربه وعواطفه ؛ بل إن بعض كبار الأدباء إنما بلغوا أوج نجاحهم الأدبي في العمل الأدبي الذي يصف كل منهم فيه قصة حياته ، أو أهم تجربة من تجاربه ، أو أزمة نفسية عبرت به ، كما قص لامرتين قصة حبه في « رفائيل » ، وكما وصف كل من شاتوبريان وأناتول فرانس نشأته في آثاره الأدبية ، وكما وصف تشارلز دكنز قصة طفولته في « دافيد كوبرفيلد » ؛ وبلغ القصصيون ذروة نجاحهم في قصصهم التي كان أبطالها صورا من أنفسهم أو من بعض حالاتهم النفسية ، كما كان جيته فاوست ، وكما كان أناتول فرانس بعض أشخاص كل رواياته

وأناتول فرانس نفسه يقول إننا لا نكتب إلا عن أنفسنا ، ويزيد فيقول إننا لا نقرأ حين نقرأ إلا أنفسنا . ولا غرو فالمرء لا يدمن إلا قراءة الضرب الذي يعجبه من القول ويصادف هوى في فؤاده ، ولا يصطفي من الكتاب إلا من يشاكله نفسا ، وهو حتى حين يقرأ موضوعاته الأثيرة من آثار أدبائه المختارين يصبغ كل ما يقرأ بصبغة نفسه ويؤوله على حسب إدراكه وطبعه ، ويستخلص منه ما قد لا يستخلصه غيره ، وما لعل المنشيء نفسه لم يقصده ، والناس إنما يقرأون الشاعر أو الكاتب وهو يتحدث عن نفسه لأنهم يرون في نفسه صورة من أنفسهم ، وفي ذاته صدى من ذواتهم ، فاذا ألفوه قد أغرب وباعد بين ما يصف وما يحسون نبذوه واستهجنوه ، ولم يعنهم مما يصف من أحوال ذاته التي لا يحسونها في ذواتهم ، أكثر مما يعنيهم من أحوال معيشته الخاصة ومطعمه وملبسه

والذاتي في أدب اللغة أسبق ظهوراً من الموضوعي : يبدأ الأدب في عهده الأول بتعبير الانسان عن خواطره العاجلة وأحاسيسه السانحة وتجاربه الحاضرة ، يرسل ذلك على سجيته وبديهته قولا سائرا أو أبياتا شاردة ، لم يعد لها العدة ولا تكلف فيها عناء طويلا ، ويرقى الأدب رقيا كبيرا وما تزال الصبغة الذاتية هي السائدة فيه ، وتظل له هذه الصبغة مادام قريبا من البداوة غير آخذ أهله بشيء من الثقافة أو مقيدين لآدابهم بالكتابة ؛ فاذا ما انتفع الأدب بالثقافة والتدوين ظهر فيه الضرب الموضوعي ، إذ تتسع أفكار الأدباء ويمتد أفق نظراتهم ويقصدون التأمل في شؤون الحياة قصدا ، غير متنظرين التجارب التي تسنح عرضاً ، ويطلبون من مناحي الحياة ومذاهب التفكير الأبعد فالأبعد ، فتزاحم الصفة الموضوعية الصفة الذاتية

فغزارة الضرب الموضوعي في الأدب من لوازم رقيه ووصوله إلى الطور الفني ، بيد أن العنصر الذاتي لا يمحى ببلوغ الأدب هذا الطور ، بل يبقى ويزداد رقيا وحرارة وعمقا ، ويظل صدقه وعمقه وحرارته خير مقياس لصدق الأدب ورقيه ، ويقترن ضعفه وتلاشيه بضعف الأدب وفتور العاطفة فيه وتغلب اللفظ على الشعور الصحيح ؛

فى عصور تدهور الأدب يسود الضرب الموضوعى ، وتنفق موضوعات بذاتها يصطلح الأدباء على طرقها على أساليب مخصوصة لا يعدلون عنها ، ويكفكفون عواطفهم الذاتية ، فلا يكاد يتميز واحد منهم عن الآخر فى السمات والميول ؛ فالضرب الموضوعى يظهر متأخرا عن الضرب الذاتى فى الآداب ، ثم يبقى متخلفا عنه عند اضمحلال الأدب ، يبقى على حال من الضعف والتكلف والابهام

ولما كان الضرب الذاتى من الأدب أسبق إلى الظهور فى تاريخ الأدب ، كان مقترنا بالشعر الذى هو أسبق إلى الظهور من النثر الفنى فالأدب فى عهوده لايكاد يزيد على أن يكون شعراً ذاتيا ، فاذا دخل الأدب طوره المتحضر الفنى ظهر فيه النثر وظهر الضرب الموضوعى فى الشعر والنثر معا ، بيد أن الشعر يظل دائما متعلقا بالضرب الذاتى ، بينما يستأثر النثر منذ نشأته بالجانب الأكبر من الأدب الموضوعى ؛ فالشعر لما له من مزايا الموسيقى والخيال أقدر على التعبير عن الوجدانيات ، والنثر لما له من مزايا الرحب والدقة والتحرر من قيود الوزن والقافية أقدر على تتبع الوصف لموضوع الانشاء ، والاسهاب فى شرح دقيقه وجليله ؛ فاذا جمع أديب بين الصناعتين رأيته يندفع اندفاعا تلقائيا إلى النظم ، إذا حفزته ثورة نفسية متدفقة ، وينساق بداهة إلى النثر إذا أراد التأمل الهادىء والتوسع فى الشرح والاستقصاء ؛ على أن هذا ليس يمانع أن يحتوى النثر أحيانا على بدائع من آثار الضرب الذاتى ، وأن يشتمل الشعر على لطائف من آثار الضرب الموضوعى

ولما كان الشعر أشبه بالضرب الذاتى من الأدب ، والنثر أقرب إلى الموضوعى ، كان الشعراء بطبيعتهم أدباء ذاتيين أو أنانيين كما قد يلقبهم بعض المنكرين عليهم ، وكان الكتاب أدباء موضوعيين ، يتناولون من مجالات القول ما لايمس أنفسهم وشخصياتهم إلا قليلا ، بينما لايكاد بعض الشعراء يخوض فى غير شؤون نفسه ، من طرب وشجن وغضب ورضى وحب وبغض ، حتى تلوح دواوين بعضهم كأنها صخب مستمر مزعج ، أو بكاء طفل مدلل وضحكه يتتابعان بلا انقطاع ، والبكاء أظهرهما جلبة والسخط والنقمة والشكوى أبين أثراً ، فاذا فرغ الشاعر من صخبه وثورانه جاء الكاتب من بعده هادئا وقوراً ، يصرف فى شعره نظر الحكيم الخبير ، ويحكم على شعره وخلقه وحياته وفهمه للدنيا حكم القاضى المتمكن ، فلا يزال الشعراء يلوحون كأنهم فريق من المتهورين الأغرار ، ولايزال النقاد يظهرون فى مسرح الراشدين الأكبر منهم سنا وخبرة بالأمور .

ولا يقتصر التفريق على الشعر والنثر فى هذا الصدد ، بل هناك أشكال من الأدب هى أصلح للذاتى وأخرى هى أوفق للموضوعى : فالقصة والترجمة والتأريخ والملحمة كلها ضروب موضوعية يتحدث فيها المنشىء عن غيره من رجال الحقيقة أو الخيال ، ومن أبناء الحاضر أو الماضى ، ويدرس حوادث لم يساهم فيها ولم يختص بها ، وإن تكن لذاته فى كل ذلك آثار تقل او تكثر ، والرسائل الاخوانية والمذكرات ، والتراجم الشخصية والاعترافات وما جرى مجراها ، كلها أشكال من الأدب ذاتية يخصصها الأديب لتحليل ذاته وعرض صور من حياته ، وإن خالط ذلك شتى النظرات الموضوعية ، أما المقالة فيتراوح حظها من كل من الضربين .

وكما تفترق أشكال الأدب وتتميز فى هذا الصدد ، كذلك تفترق وتتميز موضوعاته : فالوصف والمدح والهجاء والحكمة أقرب إلى الضرب الموضوعى من الفخر والحماسة والنسيب والشكوى ، أما الرثاء فيجمع إلى وصف خلال المرثى وهو أمر موضوعى ، وصف مشاعر الراثى وهى أشياء ذاتية ؛ على أن مواضوعات الأدب هذه قلما ترد فى أثر الأديب خالصة مستقلا ذاتيها عن موضوعيها ، بل يتمازج الضربان كما أن الأشكال الادبية كثيراً ما تختلط ، فيتصل بالأثر الادبى الواحد الترجمة بالقصص مثلا ، ويمتزج الوصف بالنسيب ، وتبدأ القصة أو القصيدة بوصف منظر وتنتهى بخواطر وجدانية ، ومن ثم تمتزج الذاتية والموضوعية فى أكثر الآثار الأدبية .

ومن التعسف تفضيل ضرب من الاثنين على الآخر : فللذاتى من آثار الأدب محاسنه ، وللموضوعى مزاياه ، كما ان الشعر لايفضل النثر ولا الاخير يرجح الأول ، بل لكل فضائله ومواقفه ودواعيه ؛ فالعمل الأدبى الذى ترين عليه مسحة الذاتية يروع بحرارته وإخلاصه وصراحته ، ويشوق بكشفه عن نفس صاحبه وتحديده لشخصيته ، كما تحدد خطوط المصور شكل الصورة وجوانبها ، ويروع بقدرة صاحبه على التأمل فى نفسه وتوضيح خلجاتها ، والضرب الموضوعى يسر إذ يعكس فى صفحة الفن مانشهد ونحس فى عالم المشاهدة والخبرة ويروع بقدرة الأديب المنشىء على الملاحظة والتقصى والتجرد من أهواء نفسه والتوفر على ما هو بصدده ، لكل من الضربين مكانته وروعته ما اتفقت له صفتان : الصدق والعمق .

وكل من الأدبين العربى والانجليزى حافل بآثار الذاتية والموضوعية فى مختلف نواحيه ، ترين هذه أو تلك على بعض آثاره أو تغلب على أدبائه ، أو تظهر فى بعض عصوره ، أو تتجلى فى أشكال منه وموضوعات دون أخرى ، بيد أنه لاختلاف تاريخى الأمتين واختلاف ظهورهما فى عصر الحضارة والثقافة ، يحتل الطور الذى كان الأدب فيه ذاتيا عهداً مهما من عهود تاريخ الأدب العربى قبل

أن يظهر الضرب الموضوعى ويشيع فى الأدب ، على حين لم يتخلف فى الأدب الانجليزى من ذلك العهد شىء ذو بال ، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزى الحديث من عهد اليزابث ، والضربان الذاتى والموضوعى قرسا رهان فى حلبته ، بل كاد الضرب الموضوعى أن يستأثر بالصدارة فى ذلك العصر .

فى عهد الجاهلية وحقبة من الاسلام كان الأدب العربى - إذا استثنى القرآن الكريم والحديث الشريف - أغلبه ذاتى الصبغة ، وكان للشعر فيه المكانة العليا ، وكان الشعراء دائبين يبدأون القول ويعيدونه فيما خالج أنفسهم من خواطر ، أو مس حياتهم من قريب من حوادث ، فامتلأ قصيدهم بالحماسة والنسيب والمنافرة والمهاجاة والفخر والتمدح بكريم السجايا ، فلما توطدت الحضارة وشاعت الثقافة اتسعت جوانب الشعر وتعددت مجالاته ، وظهر بجانبه النثر الفنى ، وتناول كلاهما موضوعى الشؤون بجانب ذاتيها ، فكان من الفنون التى جدت فى الشعر أو توسعت فيه الوصف المسهب والمدح المطنب ، وتناول النثر رسائل الأمراء ، كما جال الجاحظ والبديع وغيرهما فى نواحى الحياة ومذاهب التفكير وأحوال الماضى وخصائص الأحياء وأخبار الأمم ووجوه النقد الأدبى ، فغزرت فى الأدب العربى منظومه ومنثوره فى هذا الطور آثار الذاتية والموضوعية . يتحدث المتنبى مثلا عن عظمته وفتوته ومطامحه وأشجانه ، فيجىء شعره ذاتيا صادقا رائعا ، ويمدح سيف الدولة أو سواه ويصف مآثره ومواقعه فيميل إلى الموضوعية ؛ والأرجح أن الموضوعية كانت أظهر فى هذا العصر ، لرواج ضربين من القول موضوعيين عج بهما الأدب : عج الشعر بمدح الأمراء ، وعج النثر برسائل الدواوين .

ذانك هما الطوران الأولان من أطوار الأدب العربى من جهة الذاتية والموضوعية : الطور الأول هو عهد نشأة الأدب الذى كانت الذاتية فيه غالبة ، والثانى طور نضج الأدب الذى فيه اجتمع الضربان ؛ أما الطور الثالث فهو عهد اضمحلال الأدب تدريجاً ، وهو طور تغلب الضرب الموضوعى وتلاشى الضرب الذاتى تدريجاً : جمد الأدب على موضوعات خاصة اصطفاها الأدباء ، فى مقدمتها المدح والهجاء - وعدوها وحدها مجال الأدب وشغل الأديب ، وطرقوها على أساليب خاصة يتنازعهم فى ممارستها عاملان الحرص على تقليد الأقدمين ، والرغبة فى إظهار البراعة بالتلاعب بالألفاظ والمعانى ، أما المشاعر الذاتية الصادقة ، والخصائص النفسيه المميزة ، فاختفت من الأدب ، وحتى فى شرح عواطفه كان أديب ذلك الطور مقلدا ، لا يشرح عواطفه إلا على نحو خاص قد جرى به العرف ، وحض عليه النقاد ، وبذلك جاءت الآثار الذاتية نفسها موضوعية عامة مبهمة

ومن أحسن أمثلة الضرب الذاتى الصريح فى الطور الأول قول عنترة :

فاذا ظلمت فانى ظلوم باسل مر مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربت فانتى مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

ومن أمثلة أشعار الطور الثانى التى يمتزج فيها الذاتى والموضوعى - قصيدة المتنبى التى يعاتب بها سيف الدولة ، ومنها قوله :

مالى أكتم حبا قد برى جسدى وتدعى حب سيف الدولة الأمم
فوت العدو الذى يممته ظفر فى طيه أسف فى طيه نعم
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب منى القور والأكم

ومن أمثلة أدب الطور الثالث الذى طغت فيه الموضوعات المأثورة وطمست الشخصية الذاتية قول القائل :

وقفت بأطلال الأحبة سائلا ودمعى يسقى ثم عهدا ومعهدا
ومن عجب أنى أروى ديارهم وحظى منها حين أسألها الصدى

وكان للشعر المكانة الأولى فى الأدب الانجليزى فى العصر الاليزابثى ، وكان يتناول الضربين الذاتى والموضوعى من النظم ، تختص بالأخير - الروايات التمثيلية التى ازدهرت إذ ذاك إزدهارا عظيما ، وتختص بالأول القصائد المرسلة طويلها وقصيرها ؛ وفى القرن الثامن عشر هبط فاضمحلت فيه النزعة الذاتية ، وأصبح أكثره موضوعيا مبهما ، واحتل مكانه النثر وشمل شتى النواحى الذاتية والموضوعية ، ففى الأولى كتب كاولى واديسون وستميل كثيراً من مقالاتهم ، وفى الثانية كتب جيبون وبوزويل ورتشاردسون وديفو وآخرون لا يحصون كتبهم فى التاريخ والترجمة والقصص والمغامرات . فلما كانت النهضة الرومانسية عادت للشعر أفضليته ، وحفل بشتى الآثار الذاتية والموضوعية ، بين وصف الطبيعة وسرد الخرافات الشائقة ، ووصف تأثر النفس بهذه وتلك ، وتمجيد الجمال وشرح أطوار الحب ، ولم يزل الشعر والنثر منذ ذلك العهد فرسى رهان ، يطرقان شتى المناحى بين ذاتيها وموضوعيها -

بيد أن الذاتية ما زالت منذ عهد شكسبير إلى العصر الحاضر تطغى على الموضوعية رويداً ، وتستأثر شيئا فشيئا بالنفات الأدباء وتفوز بأشكال أدبية جديدة . ففى عهد شكسبير كان الروائى يحرك روايته حول أشخاص تاريخيين أو خرافيين بعيدين عنه بعداً كبيراً وفى القرن الثامن عشر عهد النثر الذهبى كان الادباء يكتبون القصص يضمنونها من طرف خفى صورا من حياتهم وجوانب من أنفسهم ، فيكتب سمولت الآفاق قصة كونت فاثوم المغامر ، ويكتب جولد سمث

ابن القسيس قصة قس ويكفيلد التي ليست إلا حكاية عهد نشاته في أسرته، ثم يكتب تشارلز دكنز في القرن التالي قصة صباه في كتابه دافيد كوبرفيلد؛ ثم تزداد الذاتية بروزا ويرفع الأدباء حجاب التخفي وينبذون الأسماء المستعارة، فيكتبون قصص نشأتهم ومذكرات رجولتهم وينشرون رسائلهم وتراجمهم الشخصية، والأدب الانجليزي المعاصر حافل بآثار هذه الذاتية السافرة

وقد امتازت بالذاتية الواضحة، أو الأنانية الأدبية، كثير من الأدباء الانجليز، كانوا لا يملون التأمل في نفوسهم والتحدث عن ذواتهم صراحة أو تحت غشاء شفاف: فلتون يعرض لكوارثه وعماه ومبادئه السياسية والدينية والاجتماعية في ملاحمه الثلاث، ووردزورث يؤلف المطولات الشعرية في تصوير صباه وخواطره من طفولته إلى كهولته، وبيرون ينظم القصيدة تلو القصيدة ويصور البطل تلو البطل، ولا يزيد أن يتحدث عن نفسه وميوله وآرائه، وشلي يسمى نفسه «اريل» باسم إله إغريقي، ويكتب عن نفسه تحت ذلك العنوان أشعارا، وكل من هازلت ولام يصور تصويرا دقيقا أمينا ما يحس عند خروجه للرياضة على الأقدام أو حين سماعه النواقيس تتجاوب مؤذنة بابتداء العام أو نحو ذلك

ومن جهة أخرى نرى أدباء من أمثال جراي وكولردج ورسكن يستترون وراء حجاب من الوقار والتفكير الهادىء الشامل ويتحدثون مصورين أو قاصين أو ناقدين، عن غيرهم من رجال التاريخ والأساطير وأعلام الفن والأدب، فأكثر آثار هؤلاء موضوعية، وأكثر مؤلفات الأولين ذاتية؛ كما كان من الأدباء من أخذوا من كلا الضربين بنصيب وافر، ومن برزوا في مجالي الشعر والنثر، ومن أنهوا حياتهم الأدبية باصدار تراجمهم الشخصية، ومن خلفوا في النقد آثارا تبارى آثارهم في النظم والانشاء، أو تفوقها، مثل دريدن وماكولي وماثيوارنولد

ويعد بعض المغالين تزايد هذه النزعة الذاتية في الأدب الانجليزي علامة ضعف وانحلال، ولا شك أن غلبة أحد العنصرين الذاتي أو الموضوعي على الأدب من دلائل نقصه، وإنما يكون رقيه مقترنا برقي العنصرين فيه معا. يدل ما فيه من آثار الذاتية على صدق الشعور وعمق التأمل وتميز الشخصيات، ويدل ما فيه من آثار الموضوعية على شمول النظرة واتساع أفق التفكير وتناول الادب لمختلف نواحي الحياة؟

فخري أبو السعود

«تصويب» جاء في العدد الماضي ص ٥٠٩، س ١٠: وأعدوا لهم ما استطعتم من عدة، والصواب من قوة.



من مشاكلنا الحاضرة

# ســـؤال...

للأســـتاذ علي الطنطاوي

كنت أسمع من أبي والأشياخ من أهلي أنه كان في بلدنا — فيما كان فيها من أوقاف كثيرة — وقف على المشتغلين بالعلم والمنقطعين إليه. يفتحون لهم بريعه المدارس الواسعة، ويعدون لهم الغرف المفروشة، ويهيئون لهم فيها المكتبات القيمة، ويقيمون لهم الخدم ويقدمون إليهم كل مايحتاجون إليه من طعام وشراب وحلية ومتاع، ويفرّغون قلوبهم من كل هم إلا هم الدرس والبحث، فكان الناس يرغبون في العلم، ويقبلون عليه ويبرزون فيه..

... ثم ذهب ذلك كله بذهاب أهله. وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الأوقاف، وأكلوا أموالها، فتهدمت هذه المدارس، وأمست خرائب واطلالا. ثم سرقها الناس فحولوها بيوتاً، وطمسوا آثارها...

فأعرض الناس عن العلم وزهدوا فيه، فقلنا: لا بأس، انها قد تتحولُ تلك المدارس الى دور عجزة، وقد تصير أحيانا ملجأ كسالى، ومأوى عاطلين، وعندنا المدارس الجديدة، تسير على منهج مقرر، ونظام معروف، وطريق واضح، فما نحن إلا كمن أضاع درهما ووجد ديناراً. وأقبلنا على هذه المدارس، إقبال العطاشى على المنهل الصافي. ومنينا أنفسنا بكل جليل وجميل ولكنا لم نلبث أن خرجنا منها. وواجهنا الحياة حتى علمنا بأنها لم تقم بما كان يرجى منها ويجب عليها... ووجدنا أننا لا نصلح في هذه الحياة إلا لشيء واحد، هو (الوظيفة)؛ أما العمل الحرّ، والمغامرة في الحياة فنحن أبعد ما يكون امرؤ عنه؛ ووجدنا سبيل الوظيفة مسدوداً وكراسيّها مملوءة؛ وكيف لا تكون كذلك وكل الناس يسعى إليها ويريدها؟ هل يكون أبناء الشعب كلهم موظفين؟ فكنا واحداً من رجلين: اما الغني الموسر